ذكرُ قِطعةٍ من سيرةِ أنوشروانَ وسياساتِه كتبتُها على ما حكاه أنوشروانُ نفسُه في كتابٍ عَمِلَهُ في سيرتِه وما ساسَ به مَملكتَهُ

وقرأتُ فيما كتبه أنوشروانُ من سيرةِ نفسِه قال:

رجلٌ اخترطَ السَّيفَ وأرادَ الوُثوبَ علينا

«كُنتُ يوماً جالساً بالدَّسكرة، وأنا سائرٌ إلى همذان لنُصيف هناك وقد أُعدَّ طعامٌ للرّسُل الّذين بالباب من قِبَلِ خاقانَ، والهَياطلةِ، والصّينِ، وقيصرَ وبغبورَ، إذ دخل رجلٌ من الأساورةِ مُخترطاً سيفَه حتّى وصل إلى السِّترِ. فقطع السِّترَ في ثلاثةِ أماكنَ، وأراد الدُّخولَ حيثُ نحنُ، والوثوبَ علينا. فأشار عليَّ بعضُ خَدَمي أن أخرجَ إليهِ بسيفي. فعلمتُ أنّه إن كان إنّما هو رجلٌ واحدٌ، فسوف يُحال بَينَنا وبَينَه، وإن كانوا جماعةً فإنّ سيفي لا يُغني شيئاً، فلم أَخَف ولم أتحرّك من مكاني. فأَخَذَهُ بعضُ الحرسِ، فإذا هو رجلٌ رازيٌّ من حَشَمِنا وخاصَّتِنا فلم يشكُّوا أنَّ مَن هو على رأيه كثيرٌ، فسألوني ألاّ أجلسَ ولا أحضرَ الشُّربَ في جَماعةٍ حتّى أستبينَ الأمرَ. فلم أُجِبهُم إلى ذلك لِئلاّ يَرى الرُّسُلُ منّي جُبناً، فخرجتُ لِشُربي، فلمّا فرغنا هدّدتُ الرّازيَ بقطع اليمينِ والعُقوبات، وسألت أن يَصدُقَني عن الّذي حمله على ذلك، وأنّه إن صدَقني لم تَنلهُ عقوبةٌ بعد ذلك. فذكر أنَّ قوماً وَضَعوا مِن قِبَلِ أنفسهم كُتُباً وكلاماً، وذكروا أنّه من عندِ اللّه، أشاروا عليه بذلك وأخبرُوهُ أنَّ قتلَه - إنْ قَتَلَني - يُدخِلُه الجنَّةَ. فلمّا فَحَصتُ عن ذلك وجدتُه حقًّا، فأمرتُ بتخليةِ الرّازي وبِرَدِّ ما أُخِذَ منه من المالِ، وتقدَّمتُ بضربِ رِقابِ أُولئك الّذين انتحلوا الدّين، وأشاروا به عليه حتّى لم أدَع منهم أحداً».

وقال أنوشروان:

استحلالُ قَتلي

إنّي لمّا أحضَرتُ القومَ الّذين اختلفوا في الدّين وجمَعتهم للنَّظَرِ فيما يقولونه، بلغ من جُرأتِهم وخُبثِهم وقُوّةِ شياطينِهم أن لم يُبالوا بالقَتلِ والموتِ في إظهارِ دينهم الخبيثِ، حتّى أنّي سألتُ أفضلَهم رجلاً، على رؤوسِ النّاس، عن استحلالِه قتلي فقال:

- «نَعَم! أستحِلُّ قتلَكَ وقتلَ من لا يُطاوعُنا على دينِنا».

«فلم آمُرْ بقتلِه حتّى إذا حَضَرَ وقتُ الغَداءِ، أمرتُ أن يُحتَبَسَ للغداءِ، وأرسلتُ إليه بظرفٍ من الطّعام، وأمرتُ الرّسولَ أن يُبلِّغَهُ عَنّي: أنَّ بقائي أنفَعُ له مِمّا ذكَرَ. فأجابَ رسولي: أنّ ذلَكَ حَقٌّ، ولكن سأَلَني الملكُ أن أصدُقَهُ ذاتَ نفسي ولا أكتمهُ شيئاً مِمّا أدين به، وإنّما أدينُ بِما أخَذتُه من مُؤَدِّبي».

وقال أنوشروان:

تصدّقتُ على مساكين الرُّوم

«لَمّا غَدَرَ بي قيصرُ وغَزَوتُهُ فَذَلَّ وطَلَبَ الصُّلحَ وأنفَذَ إليَّ بمالٍ وأقرَّ بالخَراج والفِديةِ، تَصَدَّقتُ على مساكين الرّومِ وضُعَفاءِ مُزارعيها مِمّا بَعَثَ إليَّ قيصر بعشرةِ آلافِ دينارٍ وذلك في ما وَطِئتُه من أرضِ الرّومِ دون غيرها».

وقال:

تخفيف الخراج لعمارة الأراضي

«لمّا هَمَمتُ بتصفُّحِ أمرِ الرَّعيَّة بنفسي، ورفعِ البَلاءِ والظُّلم عنهم، وما ينوبهم من ثقل الخَراجِ - فإنَّ فيه مع الأجرِ تزيينَ المملكة، وغِناهم، وقُدرةَ الوالي على ما يجب أن يَستخرِجَ منهم، إن هو احتاج إلى ذلك، وقد كان في آبائنا مَن يَرى أنَّ وضعَ الخراج عنهم للسَّنَةِ والسَّنتين والتَّخفيف أحياناً، مِمّا يقوّيهم على عِمارة أرَضيهم - فجمعتُ العُمّالَ ومن يؤدّي الخَراجَ، فرأيتُ مِن تخليطِهم ما لم أرَ له حيلةً إلاّ التَّعديلَ والمُقاطَعَةَ على بلدةٍ بلدةٍ، وكورةٍ كورةٍ، ورُستاقٍ رستاقٍ، وقريةٍ قريةٍ، ورجُلٍ رَجُلٍ، واستعملتُ عليهم أهلَ الثِّقةِ والأمانةِ في نفسي، وجعلتُ في كُلِّ بلدٍ مع كُلِّ عاملٍ أُمَناءَ يحفظون عليه، وولّيت قاضيَ كُلِّ كورةِ النَّظَرَ في أهل كورتِه، وأمرتُ أهلَ الخراجِ أن يرفعوا ما يحتاجون إلى رفعه إلينا، إلى القاضي الَّذي ولَّيتُهُ أمرَ كُوَرِهم، حتّى لا يَقدِرَ العاملُ أن يزيدَ شيئاً، وأن يؤدُّوا الخراجَ بمشهدٍ من القاضي، وأن يُعطِيَ به البراءة، وأن يَرفَعَ خراجَ مَن هلك منهم، ولا يُرادَ الخراجُ مِمَّن لم يُدرِك مِنَ الأحداثِ، وأن يَرفعَ القاضي وكاتبُ الكورةِ وأمينُ أهلِ البلدِ والعامِلُ، محاسبتَهم إلى ديوانِنا، وفرّقتُ الكتبَ بذلك».

وقال:

ما رَفعَ إلَينا مُوبَذان مُوبَذ

«رَفعَ إلينا مُوبَذان مُوبذ: أنَّ قوماً سمّاهم من ذوي الشَّرف - بعضُهم بالبابِ كان شاهداً وبعضُهم ببلادٍ أُخَرَ - دينُهم مخالفٌ لِمَا وَرِثنا عن نَبيِّنا وعلمائنا، وأنَّهم يتكلَّمونَ بدينهم سِرًّا ويدعُون إليه النّاسَ، وأنَّ ذلك مَفسَدَةٌ للمُلكِ، حيث لا تقومُ الرَّعيَّةُ على هوًى واحدٍ: فيُحرِّمون جميعُهم ما يُحَرِّم المَلِكُ ويستحلُّون ما يستحِلُّ المَلِك في دينه، فإنّ ذلك إذا اجتمع لِلمَلِك، قَوِيَ جنده لأجل الموافَقَةِ بينَهم وبينَ الملك، فاستُظهِرَ على قِتالِ الأعداءِ. فأحضرتُ أولئك المختلفين في الأهواءِ ثُمَّ أمرتُ أن يُخاصَموا حتّى يَقِفُوا على الحقّ ويُقرّرُوا به، وأمرت أن يُقصَوا عن مدينتي وعن بِلادي ومملكتي، وبتتبعِ كُلِّ من هُوَ عَلى هَواهُم، فيُفعَل به ذلك».

وقال:

ما سألتهُ الترك ومَسيرُنا إلى باب صُول

«إنّ التُرك الّذين في ناحية الشّمال، كتبوا إلينا بما قد أصابَهم مِنَ الحاجةِ، وأنّهم لا يجدون بُدًّا ـ إن لم نُعطِهم شيئاً ـ مِن أن يَغزُونا، وسألوا خِصالاً، أحدها: أن نتَّخِذَهُم في جُندِنا ونجريَ عليهم ما يعيشون به، وأن نُعطيَهم من أرض الكَنج وبَلَنجَر وتلك النّاحية، ما يتعيَّشون منه. فرأيت أن أسيرَ في ذلك الطّريق إلى باب صول، وأحببتُ أن تَعرِفَ الملوكُ من قِبَلِنا هناك نَشاطَنا للأسفار وقُوَّتَنا عليها متى هَمَمنا، وأن يَرَوا ما رأوا مِن هيبة المُلوكِ، وكثرة الجنودِ، وتَمامِ العُدَّةِ، وكمالِ السِّلاحِ ما يَقوونَ به على أعدائهم ويعرفون به قُوَّةَ من خَلفَهم إن هُم احتاجوا إليه، وأحببنا ـ بمسيرِنا ـ أن يُجرى لهم على أيدينا الجوائزُ والحُملانُ، والقُربُ من المجلس واللُّطفُ في الكلام، لِيزيدَهم ذلك مودّةً لنا، ورغبةً فينا، وحرصاً على قتالِ أعدائنا. وأحببتُ أيضاً التَّعَهُّدَ لحصونِهم، وأن أسألَ أهلَ الخراج عن أمرهم في مسيرنا، فَسِرتُ في طريق همذانَ وأذربيجان. فلمّا بلغتُ بابَ الصُّولِ ومدينة فيروز خُسرُه، رَمَمتُ تلك المدائنَ العتيقة والحدود، وأمرتُ ببناءِ حُصونٍ أُخَر».

«فلمّا بلغ خاقانَ الخزرِ نُزولُنا هناك، تخوَّف أن نَغزُوَهُ. فكتب: أنّه لم يزل ـ منذ ملكتُ ـ يُحِبُّ مُوادَعتي، وأنّه يرى الدُّخولَ في طاعتي سعادةً، ورأى بعضُ قُوّادِه لمّا شاهَدَ حالَه تَرْكَهُ، فأتانا في ألفين من أصحابه، فقبلناه، وأنزلناه مع أساورتنا في تلك النّاحِية، وأجريتُ عليه وعلى أصحابه الرِّزق، وأمرتُ لهم بحصنٍ هناك، وأمرتُ بِمُصلى لأهلِ ديننا، وجعلتُ فيه مُوبذاً وقوماً نُسّاكاً، وأمرتُهم أن يعلِّموا من دَخَلَ في طاعَتِنا من التُّركِ، ما في طاعة الوُلاة من المنفعة العاجلةِ في الدُّنيا، والثَّوابِ العاجلِ في الأخرى، وأن يَحُثُّوهم على المَودَّة والصِّحّةِ والعَدلِ والنَّصيحةِ ومجاهَدةِ العدوِّ، وأن يُعَلِّموا أحداثَهم رأيَنا ومَذهبَنا. وأقمتُ لهم في تلك التّخوم الأسواقَ وأصلحتُ طُرُقَهم، وقوَّمتُ السِّكَك، ونظرنا فيما اجتمع لنا هناك من الخيل والرِّجال، فإذا بحيثُ لَو كانَ في وسط فارِسَ، لَكانَ مَنزِلُنا بِها فاضلاً». قال:

تجديدُ النَّظر في أمرِ المملكة

«ولمّا أتى لِمُلكِنا ثَمانٍ وعشرون سنةً جَدَّدتُ النَّظرَ في أمر المَملكةِ والعَدلِ على الرّعيّة، والنَّظَرَ في أمرهم وإحصاء مظالمهم وإنصافهم، وأمرتُ موبذَ كُلِّ ثَغرٍ ومدينةٍ وبَلَدٍ وجندٍ بإنهاءِ ذلك إليَّ، وأمرتُ بعرض الجُندِ مَن كان منهم بالبابِ، بمشهدٍ مِنّي ومن غابَ في الثّغور والأطراف، بمشهدِ القائد وباذوسبانَ والقاضي وأمينٍ مِن قِبَلِنا،

وأمرتُ بجمع أهلِ كُوَرِ الخراج في كُلِّ ناحيةٍ من مملكتي إلى مصرها، مع القائدِ وقاضي البَلَدِ والكاتبِ والأمينِ، وسرَّحتُ من قِبَلي من عرفتُ صحَّتَه وأمانتَه ونُسكَه وعِلمَهُ، ومن جرَّبتُ ذلك منه إلى كُلِّ مصرٍ ومدينةٍ، حيث أولئك الغلمان والعُمّال وأهل الأرض، ليجمعوا بينهم وبين أهلِ أَرَضيهم وبين وضيعهم وشريفهم، وأن يُرفعَ الأمرُ كُلُّه على حقِّه وصِدقه: فَما نُفِّذ فيه لهم أمرٌ - لو صَحَّ فيه القضاءُ ورضي به أهلُه - فَرَغوا منه هنالك، وما أشكل عليهم رفعوه إِلَيَّ. وبلغ اهتمامي بتفقُّد ذلك ما لولا الّذي أداري من الأعداءِ والثُّغور، لباشرتُ أَمرَ الخراج والرَّعيَّةِ بنفسي قريةً قريةً، حتّى أتعهَّدها وأُكلِّم رجلاً رجلاً من أهلِ مملكتي، غيرَ أنّي تخوَّفتُ أن يضيع بذلك السَّببِ أمرٌ هو أعظم منه، والأمر الّذي لا يُغني فيه غَنائي ولا يقدر على إحكامِه غَيري، ولا يَكفينيهِ كافٍ، مع الّذي في الشُّخوصِ إلى قَريَةٍ قَريَةٍ، من المؤونة على الرَّعيَّةِ من جندِنا، ومن لا نَجِدُ بُدًّا من إشخاصِه معنا. وكرهنا أيضاً إشخاصَهم إلينا، مع تخوّفنا أن يَشغَلَ أهلَ الخراج عن عمارة أَرَضيهم، أو يكونَ فيهم من يَدخلُ عليه في ذلك مؤونةٌ في تكلُّف السَّير إلى بابِنا، وقد ضيعَ قُراهُ وأنهارَهُ وما لا يَجدُ بُدًّا من تعهُّدِه في السَّنَةِ كُلِّها في أوقات العمارةِ. ففعلنا ذلك بهم، ووكَّلنا موبذان موبذَ وكتبنا به الكُتُبَ وسرّحنا مَن وثِقنا به ورَجَونا أن يَجريَ مجرانا، وشخَّصنا وقلَّدناه ذلك».

قال:

جلوسنا مع أهل الكُوَر للفحص عن الرَّعيّة وأمناء الخراج

«ولَمّا آمَنَ اللّهُ جميعَ أهلِ مملكتنا من الأعداء. فلم يبقَ منهم إلاّ نحوٌ من ألفي رجُلٍ من الدَّيلم الّذين عسر افتتاحُ حصنِهم لصعوبة الجبال عليها؛ لم نَجدِ شيئاً أنفعَ لمملَكتنا من أن نفحص عن الرَّعيَّةِ وأولئك الأمناءِ الّذين وصَّيناهم بإنصاف أهلِ الخراج، وكان بلغَنا أنَّ أولئك الأُمَناءَ لم يُبالغوا على قدرِ رأينا في ذلك، فأمرتُ بالكُتبِ إلى قاضي كورةٍ كورةٍ: أن يجمعَ أهلَ الكورةِ بغير عِلمِ عاملهم وأولي أمرهم، فيسألَهم عن مظالمهم وما استخرجَ منهم، ويفحَصَ عن ذلك بمَجهود رأيِهِ، ويبالغَ فيه، ويكتُبَ حالَ رجلٍ رجلٍ منهم، ويختمَ عليه بخاتَمِه وخاتَم الرِّضا من أهلِ تلك الكورة، ويَبعثَ به إليَّ، ويُسرِّحَ مِمَّن يجتمعُ رأيُ أهلِ الكورةِ عَليه بالرِّضا نَفراً، وإن أحبُّوا أن يكونَ في من يَشخَصُ، بعضُ سَفلَتِهم أيضاً؛ فَعِلَ ذلك».

«فلمّا حضروا جلست للنّاسِ وأذِنتُ بمشهدٍ من عُظماء أرضنا ومُلوكِهم، وقُضاتِهم وأحرارِهم وأشرافهم، ونظرتُ في تلك الكُتُبِ والمظالم. فأيةُ مظلمةٍ كانت من العُمالِ ومن وكلائنا، أو من وكلاءِ وكلائنا، ونسائنا، وأهل بيتنا، حَطَطنا عنهم بِغيرِ بيِّنةٍ، لِعلمِنا بِضَعفِ أهلِ الخراج عنهم وظُلم أهلِ القُوَّةِ من السّلطانِ لهم (كذا)، وأيَّةُ مظلمةٍ

كانت لبعضِهم من بعضٍ ووضحت لنا، أمرتُ بإنصافِهم قبل البراح، وما أشكل، أو وجب الفحصُ عنه، بشهود البلد وقاضيها، سَرَّحتُ معه أميناً من الكُتّابِ، وأميناً من فقهاء دينِنا، وأميناً مِمّن وثِقنا به من خَدَمِنا وحاشيتنا، فأحكمتُ ذلك إحكاماً وثيقاً، ولم يجعلِ اللَّهُ لذوي قرابتنا وخدمنا وحاشيتنا منزلةً عندنا دونَ الحقِّ والعدلِ، فإنَّ من شأنِ قرابةِ المَلِكِ وحاشيتِه أن يستطيلوا بعِزَّةٍ وقوَّةٍ. فإذا أهملَ السُّلطانُ أمرَهم هلك من حاوروهُ إلاّ أن تكون فيهم متأدِّبٌ بأدبِ مَلِكِه، محافظٌ على دِينِه، شفيقٌ على رعيَّته، وأولئك قليلٌ. فدعانا الّذي اطّلعنا عليه من ظلم أولئك، إلى أن لا نطلبَ البيِّنَة عليهم في ما ادُّعِيَ قِبَلَهم، ولم نُرِد ظُلمَ أحدٍ أيضاً مِمَّن كان عزيزاً بنا، ومنيعاً بمكانه ومنزلته عندنا، فإنّ الحقَّ واسعٌ للضُّعفاءِ والأقوياءِ، والفقراءِ والأغنياءِ، ولكنّا لمّا أشكلتِ الأمورُ في ذلك علينا، كان الحَملُ على خواصِّنا وخَدَمِنا، أحبَّ إلينا من أن نحمِلَ على ضُعفاءِ النّاسِ ومساكينهم وأهلِ الفاقةِ والحاجةِ منهم. وعَلِمنا أنَّ أُولئكَ الضُّعفاءَ لا يَقدِرون على ظلم من حولَنا وعَلمنا مع ذلك أنَّ الَّذين أعدينا عليهم مِن خاصَّتِنا يرجعون من نعمتنا وكرامتنا إلى ما لا يرجع إليه أُولئك الضُّعفاء. ولَعمري، إنَّ أحبَّ خواصِّنا إلينا، وأبَرَّ خَدَمِنا في أنفُسِنا، الّذين يحفظون سيرتَنا في الرّعيَّة، ويرحمون أهلَ الفاقَةِ والمسكنة، ويُنصِفونهم، فإنَّه قد ظَلَمَنا من ظَلَمهم، وجار علينا مَن جارَ عليهم، وأرادَ تعطيلَ ذِمَّتِنا الَّتي هي حِرزُهم وملجأُهم».

قال:

ما كتبه إلينا أربعةُ أصنافٍ من تُركِ الخَزَر

«ثُمَّ كتب إلينا على رأسِ سبع وثلاثينَ سنةً من مُلكِنا أربعةُ أصنافٍ من التُّركِ من ناحيةِ الخزر، ولكلِّ صنفٍ منهم مَلِكٌ، يذكرون ما دَخَلَ عليهم من الحاجة، وما لهم من الحظِّ في عبودتِنا، وسألوا أن نأذَنَ لهم في القدوم بأصحابهم لخدمتنا والعملِ بما نأمرُهم به، ولا نحقدَ عليهم ما سلفَ منهم قَبلَ مُلكِنا، وأن نُنزِلَهم منزلةَ سائرِ عبيدِنا، فإنّا سَنَرى في كُلِّ ما نأمرهم به من قِتالٍ وغيرِه كأفضلِ ما نَرى مِن أهل نصيحتِنا».

«فرأيتُ في قبولي إيّاهم عدَّةَ مَنافِعَ، منها: جَلَدُهم وبأسهم، ومنها: أنّي تخوَّفتُ أن تحملَهم الحاجةُ على إتيانِ قيصرَ أو بعضِ الملوك فقووا بِهم علينا. وقد كان في ما سلف يستأجر قيصرُ منهم لقتال ملوك ناحيتنا بأغلى الأجرةِ، فكان لهم في ذلك القتالِ بعضُ الشَّوكة بسبب أُولئك الأتراك، ولأنَّ التُّركَ ليس عندهم لذَّةُ الحياةِ، فهو الّذي يُجَرِّيهم مع شقاءِ معيشتهم على الموت».

فكتبتُ إليهم: أنّا نقبَلُ من دَخَلَ في طاعتِنا ولا نبخَلُ على أحدٍ بما عندنا. وكتبتُ إلى مرزبانِ البابِ آمُرُه أن يُدخِلَهم أوَّلاً فأوَّلاً.

«فكَتَب إليَّ أنّه: قد أتاه منهم خمسون ألفاً بنسائهم وأولادهم وعيالاتهم، وأتاه من رؤسائهم ثلاثة آلافٍ بأهل بيتهم ونسائهم وأولادهم وعيالاتهم».

«ولمّا بلغني ذلك أحببتُ أن أُقرِّبهم إليّ، ليعرفوا إحساني إليهم في ما أُكرمهم به، وأُعطيهم ولِيَطمَئنُّوا إلى قُوّادِنا حتّى إذا أردنا تسريحَهم مع بعضِ قُوّادنا، كان كُلُّ واحدٍ بصاحبه واثقاً. فَشَخصتُ إلى أذربيجان. فلمّا نزلتُ أذربيجان أذِنتُ لهم في القدوم، وأتاني عِندَ ذلك طرائفُ من هدايا قيصر، وأتاني رسولُ خاقان الأكبر ورسولُ صاحبِ خوارزم، ورسولُ ملك الهند، والدّاور، وكابلشاه، وصاحب سرنديب، وصاحب كَلَه، وكثيرٌ من الرّسل، وتسعةٌ وعشرون ملكاً في يوم واحدٍ، وانتهيتُ إلى أُولئك الأتراك الثّلاثة والخمسينَ الألفِ، فأمرتُ أن يُصفّفوا هنَاك، وركبتُ لذلك، فكان يومَئذٍ من أصحابي، ومن قَدِمَ عليَّ، ومن دخلَ في طاعتي وعُبودتي، مَن لم يَسَعهم مَرَجٌ كان طولُه نَحوَ عشرة فراسخ. فحمدت اللّه كثيراً، وأمرت أن يَصنِّفَ أُولئك الأتراك في أهل بيوتاتهم على سَبعِ مراتب ورأستُ عليهم منهم، وأقطعتُهم، وكسوتُ أصحابَهم، وأجريتُ عليهم الأرزاق، وأمرتُ لهم بِالمياهِ والأرَضينَ، وأسكنتُ بعضَهم مع قائدٍ لي ببُرجانَ، وبعضَهم مع قائدٍ لي باللاّن، وبعضَهم بأذربيجان، وقسمتُهم في كُلِّ ما احتجنا إليهم من الثُّغور، وضَمَمْتُهُم إلى المرزبان. فلم أزل أرى من مناصَحتِهم واجتهادهم في ما نُوَجِّهُهُم له ما يَسُرُّنا في جميع المدائن والثُّغورِ وغيرِها».

قال:

خاقان الأكبر يَعتذرُ إليَّ ويسأل التّجاوز

«وكتب إليّ خاقان الأكبر يعتذرُ إليَّ من بعض غَدَراتِه، ويسألُ المراجَعَة والتّجاوزَ، وذكر في كتابه ورسالته: أنّ الّذي حَملَه على عداوتي وغزوِ أرضي مَن لم ينظر له، وناشَدَني اللّهَ أن أتجاوزَ عنه، ويُوثّقَ لي بِما أطمئنُّ إليه، وذكر أنّ قيصَرَ قد أرسل إليه، وزعم أنّه يستأذنني في قبول رُسُلِه، وأنّه لا يعمل في قبولِ رُسُلِ أحدٍ إلاّ بما أمرتُه، ولا يجاوزُ أمري، ولا يَرغَبُ في الأموال ولا في المودّات لأحدٍ إلاّ برضايَ. وكان دسيسٌ لي في التُّرك كاتبني بِنَدَمِ خاقان ونَدَمِ أصحابه على غَدرِه وعداوته إيّايَ».

«فأجبته: إنّي لعمري لا أبالي أبطبيعة نفسك وغريزتك غَدَرتَ بنا، أم أطعتَ غيرَكَ في غدرك بِنا، وما ذنبكُ في طاعة من أطعت في ذلك إلاّ كذنبك في ما فعلتَه برأي نَفسِك، وأنّك قد استحققت أشدَّ العقوبة. ـ وكتبتُ: ـ أنّي لا أظنُّ شيئاً مِمّا وجب بيني وبينكم إلاّ وقد كنتُ صَنعتُهُ، ولا أظنُّ شيئاً من الوثيقة بقي لكم إلاّ وقد وثَّقتَ لَنا بِه قبل اليوم ثمّ غَدَرتُم، فكيف نطمئنُّ إليك ونثقُ بقولك، ولسنا نأمنُكَ على مثلِ ما فعلتَ من الغَدرِ ونقضِ العهدِ والكذبِ في اليمين؟ وذكرت أنّ رُسُلَ قيصر عندك، ووقفنا على

استيذانك إيّانا فيهم، وإنّي لستُ أنهاكَ عن مودّة أحدٍ. وكرهتُ أن يرى أنّي أتخوّفُ مصادقَتَهُ وأهابُ ذلك منه، وأحببت أن أعلِمَهُ أنّي لا أبالي بشيءٍ ممّا يجري بينهما».

«ثُمَّ سرّحتُ لِمَرمَّة المدائن والحصون الّتي بخراسان وجمع الأطعمة والأعلاف إليها ما يحتاج إليه الجند، وأمرتُهم أن يكونوا على استعدادٍ وحَذَرٍ، ولا يكونَ من غفلتِهم ما كان في المرّة الأولى وهم على حال الصُّلح».

قال:

المقاتِلةُ وأهلُ العمارة سَواءٌ

«وكان شُكري للّه تعالى لِما وهب لي وأعطاني متّصلاً بِنِعَمِهِ الأُوَلِ الّتي وَهَبَها لي في أوّلِ خلقِه إيّاي، فإنّما الشُّكر والنِّعَمُ عِدلانِ ككفّتَي الميزان، أيُّهما رَجَحَ بصاحبِه احتاجَ الأخفُّ إلى أن يُزادَ فيه حتّى يعادِلَ صاحبَهُ. فإذا كانت النِّعمُ كثيرةً والشُّكرُ قليلاً، انقطع الحِملُ وهَلَكَ ظَهرُ الحاملِ، وإذا كان ذلك مستوياً استَمَرَّ الحامِلُ. فكثيرُ النِّعم يحتاج صاحبُها إلى كثير الشُّكر، وكثير الشُّكر يجلب كثيرَ النِّعَم. ولمّا وجدتُ الشُّكرَ بعضَه بالقول، وبعضَه بالعمل؛ نظرتُ في أحبِّ الأعمالِ إليه، فوجدتُه الشَّيءَ الّذي به أقام السَّماواتِ والأرض، وأرسى به الجبالَ، وأجرى به الأنهارَ، وبَرَأَ به البَرِيَّةَ، وذلك الحقُّ والعدلُ فلزمتُه، ورأيتُ ثمرَةَ الحقّ والعَدلِ عِمارة البُلدان الّتي بها معاشُ النّاس والدّوابِّ والطّيرِ وسكّانِ الأرضِ».

«ولمّا نظرتُ في ذلك، وجدتُ المقاتلةَ أُجَراءَ لأهل العمارة، ووجدتُ أيضاً أهلَ العمارة أُجراءَ للمقاتلة. وأمّا المقاتلة فإنّهم يطلُبون أُجورَهم من أهل الخراج وسُكّانِ البُلدان لمدافعتهم عنهم، ومجاهدتهم من ورائهم. فحقٌّ على أهل العِمارةِ أن يوفّوهم أجورهم. فإنّ عمارتَهم تَتِمُّ بِهم، وإن أبطأوا عليهم بذلك أوهَنُوهم، فَقَوِيَ عدوُّهم. فرأيت من الحَقّ على أهل الخراج ألاّ يكونَ لهُم من عمارتِهم إلاّ ما أقام معايشَهم، وعَمرُوا به بُلدانَهم. ورأيتُ أن لا أجتاحَهم واستفرِغَ ذاتَ أيديهم للخزائن والمقاتلةِ، فإنّي إذا فعلتُ ذلك ظَلَمتُ المقاتِلة مع ظلم أهلِ الخراجِ، وذلك أنّه إذا فَسَدَ العامِرُ فَسَدَ المعمورُ، وذاك أهلُ الأرضِ والأرضُ، فإنّه إذا لم يكن لأهلِ الخراج ما يُعيشُهم ويَعمرُون به بِلادَهم، هَلكتِ المقاتلةُ الّذين قوّتُهم بعمارةِ الأرض وأهلِ العمارةِ. فلا عمارةَ للأرض إلاّ بفضلِ ما في يَدِ أهل الخراج، فمِنَ الإحسان إلى المقاتلة، والإكرام لهم أن أرفُقَ بأهلِ الخراجِ وأعمُرَ بِلادَهم وأدَعَ لهم فضلاً في معايِشِهم. فأهلُ الأرض وذوُو الخراجِ أيدي المقاتِلةِ والجندِ، وقُوّتُهم، والمقاتلةُ أيضاً أيدي أهلِ الخراج وقوّتُهم».

«ولقد فكّرتُ وميّزتُ ذلك جَهدي وطاقتي، فما رأيتُ أن أُفضِّلَ هؤلاء على

أولئك ولا أُولئك على هؤلاءِ، إذ وجدتُهما كاليدين المتعاونتين، وكالرِّجلين المترافدتين. ولعمري ما أعفىٰ أهلَ الخراج من الظُّلم من أضرَّ بالمقاتلة، ولا كفَّ الظّلم عن المقاتلةِ من تعدّى على أهل الخراج، ولولا سَفهاءُ الأساورةِ لأبقَوا على الخراج والبِلاد إبقاءَ الرَّجُلِ ضَيعتَه الّتي منها معيشتُه وحياتُه وقُوّتُه. ولولا جُهّال أهلِ الخراج لَكَفُّوا عن أنفسهم بعضَ ما يحتاجون إليه من المعايش إيثاراً للمقاتلة على أنفسهم».

قال:

أقبلنا بعدَ ذلك على السِّيَر والسُّنَن

«ولمّا فرغنا من إصلاح العامّة والخاصّةِ بهذين الرُّكنين من أهل الخراجِ والمقاتلة، وكان ذلك ثمرة العدلِ والحَقِّ الّذي به دَبَّر اللّهُ العظيم خلائقَه، وشكرتُ اللّه على نِعَمِه في أداءِ حقِّه على مواهبه، وأحكمنا أمورَ المقاتلة وأهلِ الخراج يبسط العدلِ؛ أقبلنا بعد ذلك على السِّيَر والسُّنَنِ. ثم بدأنا بالأعظم فالأعظم نفعاً لَنا والأكبر فالأكبر عائدةُ على جُندِنا ورعيَّتِنَا. ونظرنا في سِيَر آبائنا من لدن بُشتاسفَ، إلى مُلكِ قبّاذَ أقربَ آبائنا مِنّا، ثم لم نترك صلاحاً في شيء إلاّ أخذناه، ولا فساداً إلاّ أعرضنا عنه، ولم يَدعُنا إلى قبول ما لا خيرَ فيه من السُّنَنِ حُبُّ الآباءِ، ولكنّا آثرنا حُبَّ اللّهِ وشكرَه وطاعتَهُ».

«ولمّا فرغنا من النَّظَر في سِيَر آبائنا، وبدأنا بهم، وكانوا أحقَّ بذلك، فلم نَدَع حقّاً إلاّ أكثرناه، ووَجَدنا الحقَّ أقربَ القرابة؛ نَظَرنا في سِيَرِ أهل الرّوم والهند، فاصطفينا محمودَها، وجعلنا عِيَار ذلك عقولَنا، وميَّزناه بأحلامِنا، فأخذنا من جميع ذلك ما زَيَّن سلطانَنا، وجعلناه سُنَّةً وعادةً، ولم تُنازعنا أنفُسنا إلى ما تميلُ إليه أهواؤنا، وأعلمناهُم ذلك وأخبرناهم به، وكتبنا إليهم بما كَرهنا لهم مِن السِّيَر ونَهيناهُم عنه، وتقدّمنا إليهم فيه، غيرَ أنّا لم نُكره أحداً على غير دينه وملَّتِه ولم نَحسُدهُم ما قِبَلَنا، ولا مع ذلك أَنِفنا مِن تعلُّم ما عِندَهُم، فإنَّ الإقرارَ بمعرفة الحقِّ والعلم، والاتّباعَ له، مِن أعظم ما تزيَّنت به الملَوك، ومِن أعظم المضرّةِ على الملوك الأَنَفَةُ مَن التّعلُّم، والحميّةُ من طلبِ العلم، ولا يكونُ عالِماً مِن لا يتعلَّمُ».

ولمّا استقصيتُ ما عند هاتين الأمَّتين من حكمة التَّدبير والسِّياسة، وصلتْ بين مكارم أسلافي، وما أحدثتُه برأيي، وأخذتُ به نفسي، وقبلتُه عن الملوكِ الذين لم يكونوا منّا وَثَبَتُّ على الأمر الّذي نلتُ به الظَّفَر والخيرَ. ورفضتُ سائرَ الأمم، لأنّي لم أجد عندهم رأياً ولا عقولاً، ولا أحلاماً، ووجدتُهم أصحابَ بَغي وحسدٍ وكَلَب وحِرْصٍ وشُحَّ وسوءِ تدبير وجَهالةٍ ولؤم عهدٍ وقلَّةِ مكافأةٍ. وهذه أمورٌ لا تصلح عليها ولايةٌ، ولا تَتِمُّ بها نعمةٌ».

وقرأتُ مع هذه السّيرة في آخر هذا الكتاب، الّذي كتبه أنوشروان في سيرة نفسه، أنّ أَنوشروان لمّا فرغ من أمور المملكة وهذّبها، جمع إليه الأساورة مع القُوّاد والعظماءِ والمرازبةِ والنُّساك والمَوابِذةِ وأماثلَ النّاس معهم، فخطبهم فقال:

خُطبةُ أنوشِروانَ

«أيّها النّاسُ! أحضِروني فهمكم، وأرعوني أسماعَكم وناصِحوني أنفُسَكم، فإنّي لم أزل واضعاً سيفي على عُنُقي - مُنذُ وَليتُ عليكم - غَرَضاً للسُّيوفِ والأسنَّة، كُلُّ ذلك للمدافعة عنكم والإبقاء عليكم، وإصلاح بِلادكم مرّةً بأقصى المشرقِ. وتارةً في آخر المغرب، وأخرى في ناحيةِ الجنوب، ومثلها في جانب الشّمال. ونقلتُ الّذين اتَّهمتُهم إلى غيرِ بِلادهم، ووضعتُ الوضائعَ في بلدان التُّرك، وأقمتُ بُيوتَ النّيرانَ بقسطنطينيّة، ولم أزل أصعد جبلاً شامخاً وأنزل عنه، وأطأُ حُزُونَه بعد سهوله، وأصبر على المخمصةِ والمخافة، وأكابد البردَ والحرَّ، وأركب هَولَ البحرِ وخَطَرَ المفازةِ، إرادةَ هذا الأمر الّذي قد أتمَّهُ اللّه لكم مِن الإثخانِ في الأعداء، والتّمكين في البلاد، والسّعة في المعاش ودركِ العِزِّ، وبلاغ ما نِلتُم. فقد أصبحتم بحمد اللّهِ ونعمته على الشَّرَفِ الأعلى، من النّعمةِ والفَضلِ الأكبر من الكرامة والأمن، وقد هزم اللّهُ أعداءَكم وقَتَلَهم، فهُم بين مقتولٍ هالكٍ، وحيٍّ مطيع لكم سامع.

«وقد بقي لكم عَدُوٌّ عددُهم قليلٌ، وبأسُهم شديدٌ، وشوكتُهم عظيمةٌ، وهؤلاءِ الّذين بَقوا، أخوَفُ عندي عليكم، وأحرىٰ أن يهزموكم ويغلبوكم، من الّذين غَلَبتُمُوهُم مِن أعدائكم أصحابِ السُّيوفِ والرّماحِ والخُيول. فإن أنتم - أيّها النّاسُ - غلبتُم عدوّكم هذا الثاني غَلَبَتَكُم لِعدوّكم الّذين قاتلتُم وحاصرتُم، فقد تَمَّ الظَّفَرُ والنَّصرُ، وتَمَّت فيكم القوّةُ وتَمَّ لكم العِزُّ، وتمّت عليكم النّعمةُ، وتَمَّ لكم الفَضلُ، وتَمَّ لكم الاجتماعُ والأُلفَةُ والنّصيحةُ والسّلامةُ. وإن كنتُم قصّرتُم ووَهنتُم، وظفرَ هذا العَدوُّ بكم، فإنَّ الظَّفَر الّذي كان منكم على عَدوّكُم بالمغربِ والمشرقِ وفي الجنوب والشّمال، لم يكن ظفراً مِنكم، فاطْلُبُوا أن تقتلوا من هذا العدوِّ الباقِي مِثلَ الّذي قتلتُم مِن ذلك العَدُوِّ الماضي، وَلْيَكُنْ جِدُّكم في هذا واجتهادُكم واحتشادُكم أكبرَ وأجلَّ وأحزمَ وأعزمَ وأصحَّ وأسدَّ. فإنَّ أحقَّ الأعداءِ بالاستعداد له أعظمُهم مَكيدةً وأشدُّهم شوكةً، وليس الّذي كنتم تخافون من عدوِّكم الّذي قاتلتُم، بقريبٍ من هؤلاءِ الّذين آمُرُكم بقتالهم الآنَ. فاطلبوه، وَصِلُوا ظَفراً بظَفَرٍ، ونصراً بنصر، وقُوَّةً بقُوَّةٍ، وتأييداً بتأييد، وحزماً وعزماً بِحَزم وعَزم، وجهاداً بجهادٍ. فإنَّ بذلك اجتماعَ صلاحِكم، وتمامَ النّعمةِ عليكم، والزّيادةَ في الكرامة من اللّهِ لكم، والفوزَ برضوانِه في الآخرةِ».

«ثم اعلموا أنَّ عَدُوَّكم من التُّرك والرُّوم والهندِ وسائرُ الأُمم، لم يكونوا لِيَبلُغوا

منكم - إن ظهروا عليكم وغلبوكم - مثلَ الَّذي يبلغ هذا العدوُ منكم، إن غلبكم وظهر عليكم. فإنّ بأسَ هذا العدوِّ أشدُّ وكيدُه أكبرُ، وأمرُهُ أخوَفُ مِن ذلك العدوِّ».

«يا أيها النّاسُ، إنّي قد نَصِبتُ لكم كما رأيتُم، ولقيتُ ما قد علمتم بالسَّيف والرُّمح والمفاوزِ والبحارِ والسُّهولةِ والجبالِ أقارعُ عدوًّا عدوًّا، وأكالب جنداً جنداً، وأكابِدُ مَلِكاً مَلِكاً، لم أتضرَّع إليكم هذا التَّضَرُّعَ في قتالِ أُولئك الجنودِ والملوكِ، ولم أسألكم هذه المسألةَ في طلبِ الجدِّ والاجتهاد والاحتفال والاحتشادِ، وإنّما فعلتُ هذا اليومَ لِعِظَم خَطَرِه، وشِدَّةِ شوكتِه ومخافةِ صولتِه بِكم، وإن أنا - أيُّها النّاسُ - لم أغلب هذا العدوَّ وأنفِه عنكم، فقد أبقيت فيكم أكبرَ الأعداءِ، ونفيتُ عنكم أضعفَها. فأعينوني على نفي هذا العدوِّ المخوفِ عليكم، القريبِ الدّارِ منكم. فأُنشِدُكم اللّه - أيّها النّاسُ - لَمّا أعنتموني عليه حتّى أنفيَهُ عنكم وأخرجَه مِن بينِ أظهرِكم، فيتمَّ بلائي عندكم، وبلاءُ اللّهِ فيكم عندي، وتتمَّ النّعمةُ عليَّ وعليكم، والكرامةُ من اللّهِ لي ولكم، ويتمَّ هذا العزّ والنّصرُ وهذا الشّرفُ والتّمكينُ، وهذا الثروةُ والمنزلةُ».

«يا أيُّها النّاس! إنّي تفكّرتُ بعدَ فراغي من كتابي هذا وما وصفتُ من نعمة اللّهِ علينا في الأمر الَّذي، لمّا غلب «دارا» الملوكَ والأمَمَ، وقهرَها واستولىٰ على بلادِها، ثم لمَّا لم يُحكم أمرَ هذا العدوِّ؛ هلك [بِسَبَبه] وهلكت جنودُه، بعدَ السَّلامةِ والظَّفرِ والنّصرِ والغَلَبَةِ. وذلك أنه لم يرضَ بالأمرِ الَّذي تمَّ له به المُلكُ، واشتدَّ به له السُّلطان وقويَ به على الأعداءِ، وتمَّت عليه بِهِ النِّعمة، وفاضت عليه من وجوه الدُّنيا كلُّها الكرامةُ، حتّى احتيلَ له بوجوه النَّميمةِ: البغيِ، فدعا البغيَ، والحَسَدِ، فتقوّىٰ به وتمكّنَ. ودعا الحسَدَ بعضُ أهلِ الفقرِ لأهلِ الغنىٰ، وأهل الخمولُ لأهلِ الشّرف. ثمَّ أتاهم الإسكندرُ على ذلك مِن تفرُّق الأهواءِ، واختلافِ الأمور، وظهورِ البغضاء، وقُوَّةِ العَداوةِ فيما بينَهم، والفسادِ منهم. ثم ارتفع ذلكَ إلى أن قتلَه صاحبُ حَرَسِهِ وأمينُهُ عَلى دَمِه، لِلَّذي شَمَلَ قلوبَ العامَّةِ من الشَّرِّ والضَّغينةِ، وثَبَتَ فيها مِنَ العَداوةِ والفُرقةِ، فكفى الإسكندرَ مؤنَةَ نَفسِه. وقد اتَّعظتُ بذلك اليوم فَذَكَرتُهُ».

«يا أيّها النّاسُ! فلا أسمعَنَّ في هذه النِّعمةِ تفرُّقاً ولا بَغياً ولا حَسَداً ظاهراً ولا وشايَةً ولا سِعايةً، فإنَّ اللّهَ قد طَهَّر من ذلك أخلاقَنا ومُلكَنا وأكرمَ عنه ولايَتنا. وما نِلتُ ما نِلتُهُ - بنعمة ربِّنا وحمدِه - بشيءٍ مِن هذه الأمورِ الخبيثةِ الَّتي نَفَتها العُلماءُ، وعَافَتها الحُكماءُ، ولكنّي نِلتُ هذِهِ الرُّتَبَ بالصِّحَّةِ والسَّلامةِ، والحُبِّ للرَّعِيَّةِ، والوفاءِ والعدلِ والاستقامةِ والتُّؤَدَةِ. وإنّما تَرَكنا أن نأخُذَ عن هذه الأُمَمِ الَّتي سمَّيناها أعني: مِنَ التُّركِ والبَربَر والزَّنج والجبالِ وغيرهم مِثل ما أخذنا عن الهنَد والرّوم، لظهورِ هذه الأخلاقِ فيهم وغَلَبَتِها عليهم. ولم تصلح أمّةٌ قطُّ ولا مَلِكُهَا عَلَىٰ ظهورِ هذه الأخلاقِ فيها. وإنَّ

أوَّل ما أَنَا نافٍ وتاركٌ مِن هذِه الأمورِ، هذه الأخلاقُ الَّتي هي أعدى أعداءِكم».

«يا أيُّها النّاس! إنَّ فيما بَسطَ اللّهُ علينا بالسَّلامَةِ والعافيةِ والاستصلاحِ، غِنًى لَنا عمَّا نطلب بهذه الأخلاقِ المُردِيَةِ المشؤومةِ. فاكفُوني في ذلك أنفُسَكم فإنَّ قَهرَ هذه الأعداءِ أحبُّ إليَّ وخيرُ لَكُم مِن قهرِ أعدائكم من التُّركِ والرُّوم. فأمَّا أنَا ـ يا أيها النّاسُ ـ فقد طِبتُ نفساً بترك هذه الأمورِ ومَحقِها وقَمعِها ونَفيِها عنكم، لا حاجةَ لي بما فيها، ولا بالَّذي عليَّ منها، فطيبوا أنفُساً بالَّذي طِبتُ به نفساً منكم».

«يا أيُّها النّاسُ! إنّي قد أحببتُ أن أنفَي عنكم عدوَّكم الباطِنَ والظّاهِرَ، فأمَّا الظّاهرِ منهما، فإنّا بحمد اللّهِ ونعمتهِ، قد نفيناه وأعانَنَا اللّه عليه وخَضَد لنا شوكتَه، وأحسنتم فيه وأجملتم وآسَيتُم وأجهدتم. فافعلُوا في هذا العَدُوِّ كما فعلتم في ذلك العدوِّ، واعملوا فيه كالَّذي عملتم في ذلك، واحفظوا عنّي ما أوصيكم به، فإنّي شفيقُ عليكم ناصحُ لكم».

«أيُّها النّاسُ! من أحيى هذه الأمورَ فينا، فقد أفسد بلأَه عندنا بقتاله مَن كان يقاتلنا من أعدائنا، فإنّ هذه أكثر مضرّةً وأشدُّ وأعظم بليّةً وأضرُّ تَبِعَةً. واعلموا أنَّ خيركم ـ يا أيّها الناسُ! مَن جَمعَ إلى بلائهِ السّالِفِ عندنا، المَعونةَ لنا على نفسِه في هذا الغابِرِ. واعلموا أنَّ مَن غَلَبَهُ هذا غَلَبَ عليه ذاك، ومن غَلَبَ هذا فقد قَهَرَ ذاك. وذلك أنَّ بالسَّلامة، والأُلفةِ، والمَودَّةِ، والاجتماعِ، والتَّناصح منكم يكونُ العِزُّ والقُدرةُ والسلطانُ، ومع التّحاسُدِ، والبغي، والنَّميمة، والتَّشتُّتِ، يكون ذهابُ العزِّ وانقطاعُ القُوَّةِ، وهلاكُ الدُّنيا والآخرةِ. فعليكم بما أمرناكم به، واحذروا ما نهيناكم عنه، ولا قُوَّةَ إلا باللّه. عليكم بِمُواساةِ أهلِ الفاقةِ وضيافةِ السّائلةِ. وأكرِموا جِوارَ من جاوَرَكم، وأحسِنُوا صُحبَةَ مَن دَخَلَ من الأُمَمِ فيكم، فإنَّهم في ذِمَّتِي، لا تَجبَهوهم، ولا تَظلِموهم، ولا تَسلَّطوا عليهِم، ولا تُحَرجُوهم، فإنّ الإحراجَ يدعو إلى المَعصِيَةِ، ولكن اصبِرُوا لهم على بعضِ الأذىٰ، واحفظوا أمانَتكم وعهدَكم واحفظوا ما عهدتُ إليكم من هذه الأخلاق، فإنّا لم نَرَ سلطاناً قطُّ ولا أُمَّةً هلكوا إلاّ بترك هذه الأخلاق، ولا صَلحُوا إلاّ مَعَها. وباللّهِ ثِقَتُنَا في الأمور كُلِّها».

ثُمَّ هلك أنوشروان بعد ثمانٍ وأربعين سنة من مُلكِه، وملك ابنُه:

هُرمُزُ بنُ أنوشِروانَ

وكانت أمُّه بنتَ خاقان الأكبر، وكان كثير الأدبِ، حَسَنَ النِّيَّةِ، في الإحسان إلى الضُّعفاءِ والمساكين، إلاّ أنّه كان يحمل على الأشراف، فعادَوه وأبغضُوه فعلم بذلك منهم، فكان في نفسه منهم مثلَ ما في أنفسهم منه.